حبكة الانتصار في كتاب شجرة البمبر

أ.د. إشراق سامي عبدالنبي
مركز دراسات البصرة والخليج العربي / جامعة البصرة
Email:ishraqsami85@gmail.com

الملخص

تناول البحث مفهوم حبكة الانتصار في سيرة شجرة البمبر للكاتبة فاتن الصرّاف، بوصفها سيرة ذاتية/سردية تُعيد تمثيل الذات الأنثوية عبر الذاكرة، لا من خلال منطق الهزيمة أو الرثاء، بل عبر استراتيجية سردية تقوم على تحويل التجربة الشخصية إلى فعل انتصار رمزي. وينطلق البحث من فرضية مفادها أن النص لا يقدّم الانتصار بوصفه حدثًا خارجيًا مكتملًا، بل بوصفه مسارًا سرديًا تدريجيًا يتشكّل عبر إعادة تأويل الألم والحرمان والتهميش.

الكلمات المفتاحية : سيرة، حبكة انتصار، رواية تربوية، فاتن الصراف .

The Plot of Victory in Shajarat al-Bambar (Bumber Tree)

Prof. Dr. Israq Sami Abdulnabi
Basra and Arab Gulf Studies Center / University of Basrah
Email: ishraqsami85@gmail.com

Abstract

The study examines the concept of the plot of victory in book of (Shajarat al-Bambar) by Faten Al-Sarraf, considering it as an autobiographical/narrative text that reconfigures the female self through memory, not according to a logic of defeat nor of lamentation, but through a narrative strategy that transforms personal experience into an act of symbolic victory. The study proceeds from the assumption that the text does not present victory as a complete external event, but rather as a gradual narrative process shaped through the reinterpretation of pain, deprivation, and marginalization**.**

Keywords: Autobiography, Plot of Victory, Educational Novel, Faten Al-Sarraf.

المقدمة

يمثل كتاب (شجرة البمبر) للكاتبة فاتن الصراف تجربة سردية مميزة تتكئ على مزج الحكاية بالبعد التوجيهي والتربوي، حيث تسعى النصوص إلى بناء وعي جمعي وفردي عبر استحضار صور الصراع اليومي والبحث عن الخلاص، في روايتها لتجربتها الشخصية ضمن ما يتعارف عليه (بالسيرة الذاتية). تطورت النظرة النقدية فيما بعد لمثل هذه الكتابة مع (دوبروفسكي) الذي اصطلح على مثل هذه الكتابة: (التخييل الذاتي) وهي ظاهرة معاصرة ما بعد حداثية في الأدب .

تكتب فاتن الصراف جزءاً من حياتها وفق ميثاق سيري متفق عليه، لكن هذه الكتابة تخضع لآلية واسلوب خاص في التأليف " اذ بمجرد المجاهرة بعلاقة حياة ما فهي تخضع لتشويهات لابد منها، ذاكرة غير مخلصة ، انتقاء المشاهد الضرورية "[1] ويبرز في هذا السياق ما يمكن تسميته بـ حبكة الانتصار، تلك البنية التي تتشكل من خلال تقديم شخصيات وأحداث تمر بمحن أو اختبارات، لكنها في النهاية تنجح في تجاوزها، بما يرسّخ قيماً تربوية مثل الصبر، والصمود، والإيمان بالقدرة على التغيير. إن السرد التوجيهي في هذا الكتاب لا يقتصر على الوعظ المباشر، بل يتكئ على مسار درامي تتصاعد فيه الأحداث نحو لحظة الانتصار، مما يجعل القارئ شريكاً في التجربة ومتلقياً لرسالة تحمل بعداً إنسانياً وأخلاقياً. ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث الذي يسعى إلى دراسة آليات حبكة الانتصار في السرد التوجيهي في شجرة البمبر، وكيفية توظيفها فنياً لخدمة الرؤية الفكرية للكاتبة، فضلاً عن الكشف عن أثرها في تعزيز القيمة الجمالية والتربوية للعمل الأدبي .

كتبت فاتن الصراف سيرتها معتمدة على فكرة نجاح وصمود وتفوق، وقد اختارت شجرة البمبر (المعروفة أيضاً بالجوست أو التبلدي الهندي) وهي شجرة منتشرة في جنوب العراق وبيئاته الشعبية، وتعد جزءاً من المشهد اليومي للناس. بهذا الاختيار، ربطت الكاتبة نصها بجذور البيئة المحلية، لتمنح السرد هوية مكانية أصيلة فشجرة البمبر رمز محلي بيئي محلي اختارته عنوانا لكتابها السيري في تعالق نفسي وعاطفي مع هذه الشجرة التي كانت ثابتة في حديقة منزلهم فتغيرت اقدارهم في الوقت الذي تعرضت فيه الشجرة إلى أذىً مباشر عبر قصف مدفعي على البصرة أثناء الحرب العراقية الايرانية .

هذه التجربة السيرية تتميز بمحاولتها الجادة لنقل الفكرة والتركيز عليها أكثر من التفاصيل العاطفية التي تأتي مكملة وليست أساسية، ويمكن وصف الكتابة في شجرة البمبر بأنها مشاهد خارجية في الغالب، فتواصلها مع المشاعر بسيط وآني، أي وليد اللحظة بالغالب، فإذا كانت الكتابة السيرية على وفق تعريف فيليب لوجون الأساسي لها تقع ضمن تقاطع ثلاث مفردات رئيسة وهي : الحياة /الذات/ الكتابة، فإن فاتن الصراف اختارت من الحياة ما حدث بالخارج ولم تصنعه المشاعر بل

الأفكار والإرادة والنظرة الواقعية، ولعل مثل هذه الطريقة في الكتابة ليست معتادة في نصوص المرأة التي تحتفي كثيرا بمشاعرها وتركز عليها .

اما الكتابة لديها في وسيلة نقل المعرفة وليست مجالا لاستعراض القدرة على الفصاحة واختبار جمالية اللغة، اذ لم تهدف هذه السيرة الذاتية إلى فخامة النص بقدر رغبتها في نقل التجربة، ذلك الهاجس الذي يبدو واضحاً عبر تركيزها على محور معين هو (العمل) .

وعلى هذا الاساس تدخل هذه السيرة ضمن تلك الكتابات التي يمكن أن نسميها :

(رواية التربية) أي المحكي الذي يحاول التوجيه لقيمة معينة في الحياة والتأثير في المتلقي بغية خلق موقف إيجابي من وجهة نظرها، هذا التوجيه سيكون من خلال التجربة الغنية وسردها.

وباعتبار تركيزها على ما حدث دون أن تترك مسافة فائضة عن حاجة النص للتأمل والتفكر أو عرض وجهات النظر، فتبدو محاولة النظر إلى هذه السيرة عبر حبكتها هي الأقرب لروح النص .

المبحث الأول / الوسيلة/ الحبكة

إذا تعاملنا مع النص من وجهة نظر ثقافية سنجد بالضرورة إنه يحمل غاية معينة أو فكرة يريد توجيهها أو إعلان يحاول توثيقه، وهو بالغالب جزء من مقاومة الانسان للكثير من محاولات المصادرة والتهميش أو الظلم أو التسلط الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي .

والكتابة السيرية هي من أكثر الطرائق الأدبية انسجاما مع هذه الفكرة الثقافية وأوضحها في التعبير عن فردية الانسان ورفضة للمصادرة أو القمع . في هذا المبحث سنركز على الوسيلة التي استعملتها فاتن للوصول إلى غايتها التوجيهية وهي هنا الحبكة .

والحبكة "مصطلح سردي يحيل على ما يسميه (أرسطو) الميتوس أي تنظيم الاحداث، وقد اكد ريكور ان الميتوس باعتباره تنظيما للاعمال المنجزة هو ادماج لها في حبكة .فالحبكة اذن تتمثل اساسا في انتقاء الاحداث والاعمال المروية وتنظيمها " (٢)

الحبكة في السيرة تعتمد على تنظيم الاحداث الواقعية بشكل منطقي يخدم الفكرة الاساسية عبر اختيار لحظات محورية مثلا: صراع أو لحظة استرجاع أو فكرة نجاح كما تجسدت في التجربة السيرية لفاتن الصراف، التي حاولت أن تمرر عبر قصتها فكرة تشجع على الصبر والمقاومة والعمل.

وقد اختارت هذه السيرة نوعاً من الثبات في القرارات وربما نتطرف فنسميه عناداً وهو لم يكن غاية بحد ذاته لكنه كان وسيلة الكاتبة للتعرف على الحياة بجهودها الشخصية وهي صفة تحتاج إلى الكثير من الشجاعة في مواجهة الصعاب وتقلبات الزمن العسيرة، وجدت فاتن أن ما قامت به حري بأن يكتب أو ينقل وكانت وسيلتها التجربة السيرية التي تعتمد القص الموجه.

ولعل هذا السبب الذي كان موجها في أن يبنى الكتاب كله على فكرة الانتصار عبر خلق حبكات صغيرة تمر بتجربة ما لكنها في النهاية لا تخسر ابداً بل تؤكد على فكرة الثبات تلك .

تبدو حبكة الانتصار جاذبة في السرد فهي من أكثر البنى السردية شيوعا في الكتابة الكلاسيكية لأنها جاذبة للمتلقي ومرضية لخياله، وهي تعتمد على فكرة وجود شخص يواجه صعوبة فيتحول إلى انسان عاجز أو مظلوم لكن الاحداث التي تصنع حكايته ستقوده إلى بر الامان.

التحبيك هنا يتكرر عبر تلك القصص الصغيرة التي تنتظم داخل الحبكة التربوية الكبرى والتحبيك كما يقول (هايدن وايت) هو اضفاء شكل على الفكرة، فالتاريخ من وجهة نظره لن يكون وثيقة صافية تماما التاريخ هو ضرب من الخيال المنظم، وكل محاولة لتقديمه كعلم محايد مجرد خداع للذات

تقتحم شجرة البمبر الواقع بالكثير من القدرة على توظيف الفكرة، اذ تسير الاحداث والافكار داخلها على وفق تصميم يتناسب مع شخصية الكاتبة /المهندسة المعمارية، فلكل سبب نتيجة ولكل مشكلة حل وهكذا لا يدور شيء في شجرة البمبر خارج نطاق التصميم ليكون فائض الحكي

"ما زلت أحفظ عن ظهر قلب، اليوم الذي علق فيه اخي لافتة على سطح بيتنا مكتوب عليها كلنا نحتفل باعياد تموز المجيدة، كنا نسميها لافتة الخوف من كان يجرؤ أن لا يفعل ذلك لكنني لم احفظ تاريخ ذلك اليوم التموزي لهذا السبب فقط، كنت في تلك اللحظة قد وصلت الى بيتي عائدة من المدرسة وناديت على اخي بنبرة فرح لا توصف لأخبره بنتيجة امتحان الثانوية العامة، فقد حصلت على معدل يؤهلني لدخول قسم العمارة، كان اخي يراهن على حصولي على معدل اقل يضمن بقائي في البصرة وكان يبتسم حين اردد على مسامع افراد عائلتي انني سأذهب الى بغداد لدراسة العمارة، اخي كان يهمس لهم :

"لا داعي للقلق لن تحصل على أكثر من ٩٥وسوف تضطر للبقاء في البصرة لدراسة الطب أو الهندسة المدنية "

ناديته بصوت عال، لقد حصلت على ٩٧

افلت اخي اللافتة من يده، لم يستوعب الصدمة، كانت الساعة حينها تشير الى الثانية عشر وعشرين دقيقة ظهرا " (٣)

اقتبست هذا النص رغم طوله نسبيا لأن السيرة تستند إليه بوصفه الموضع الذي ستتحدث عنه الكاتبة، وهو مجال النجاح واختبار الحياة عبر العمل .

تختار الكاتبة فكرة الانتصار هذه وتنسج القصص اعتمادا على هذه الثيمة لهدف واضح تجلى فيما اشرنا اليه في البداية وهو نوع من التوجيه والتأثير

تدور فكرة الرواية كلها عبر حبكة واحدة يمكن تفصيلها بالآتي :

البداية / بذرة غضة في المدينة

مشهد البصرة المشوهة بالحرب والقصف

الطفولة في بيئة متوترة، لكن محاطة برغبة في الحلم والمعرفة

هنا يتشكل التناقض: جذور ضاربة في الخراب، وطموح يتطلع إلى البناء

الصراع / مواجهة التحديات

الدراسة الجامعية وسط الحصار والدمار

رحيل الأم: يمثل الذروة الأولى للألم، ويؤسس للوعي بأن الحياة لا تمنحنا ضمانات

دخول مجال هندسي يسيطر عليه الرجال: صراع مع البنية الذكورية للعمل

التحول/ المجازفة والإصرار

قرارات جريئة بالانتقال: من البصرة إلى بغداد، من العراق إلى الأردن، فالإمارات، ثم أستراليا

مواجهة الاغتراب الثقافي والمهني، وإعادة اختراع الذات في كل بيئة جديدة

الانتصار/ ذروة الحبكة

تأسيس مكاتب معمارية ناجحة

مشاريع ذات قيمة حضارية وسياحية

الاعتراف الدولي، وتحول السيرة من قصة ألم إلى قصة إلهام

هذه الحبكة العامة انطوت داخلها على العديد من الأخبار والحكايات الصغيرة المبنية على ذات الفكرة الأساسية للكتاب ، نية حسنة تواجه تحديات مختلفة الدرجات في الخطورة والاثر تستقبلها الكاتبة بصبر وحكمة لتكون فيما بعد نهاية منتصرة، لتتحول السيرة من تجربة شخصية إلى خطاب عام يوجه رسالة للشباب مفادها الانطلاق من الصفر نحو النجاح والتميز .

فالطموح كان هاجسا واضح المعالم عند فاتن " كنا ندرس لتحقيق طموحنا ، كانت هي ترغب في دراسة الطب، وكنت ارغب في دراسة العمارة "[٤]

وهي تجد انها تملك ما يمنحها القدرة على ذلك مثلا ميزتها في التفوق في ذاكرتها للأرقام " مهووسة أنا بالأرقام ، هكذا عرفني الجميع ، احفظ ارقام الشوارع والبيوت ولوحات السيارات وارقام هواتف الغرباء ادون في ذاكرتي كل شيء دون وعي او تخطيط مسبق، اساعد اختي التي تكبرني بخمسة اعوام في حل الواجب اليومي لدرس الرياضيات وتحديدا الاسئلة المتعلقة بالمعادلات الانية . وانا ما زلت تلميذة في الصف الخامس الابتدائي " [٥]

تنسجم هذه الاشارات الواقعية والصورة التي تريد ان تقدمها الكاتبة عن ذاتها، إنها الامكانية العقيلة المتميزة، ربما يكون رافق مثل هذه السمات المتفوقة مواضع أخرى لضعف ما، لكنها لم تكتب تلك المواضع، واختارت ان تقدم لنا هذه الصورة .

صورة لفتاة غير نمطية لا تنتظم على وفق مبدأ الانتماء الجمعي المعتاد فهي لا تتكاسل عن المحاولة أو اكتشاف الأشياء بذاتها ملقية بما تسمع خارج همتها أو تصوراتها، لكن ضمن فكرة لا تجنح أو تبتعد عن الواقع كثيراً بل تحاول معه وتنطلق منه .

فالحبكة اذن مفهوم نقدي يتشكل حول السرديات التي تبدأ من محنة ،أو انكسار، ثم تمر بمسار مليء بالعقبات، وتنتهي بـ"صعود" أو تحقق الذات هذه الحبكة ليست مجرد تسلسل أحداث، بل هي خطاب رمزي يعبّر عن المقاومة والقدرة على تحويل الهزائم الفردية إلى نجاحات جمعية.

في أدب السيرة الذاتية، تُستخدم هذه الحبكة لترميم صورة الذات في مواجهة القهر الاجتماعي أو السياسي أو النفسي، كان مرور فاتن الصراف بالسياسة مروراً عابراً فهي لم تتبنَ مواقفا أيديولوجية ضد السلطة والنظام وإنما شرحت اثره وبطشه بطريقة الانسان البسيط الذي يريد الحياة الكريمة التي تليق به.

المبحث الثاني / الغاية التوجيه

ولان الانتصار طريق صعب لا يتحقق دون وعورة وتحديات قسمت المبحث على ما يأتي :

١_ معوقات عامة

٢_ معوقات شخصية

تتذكر فاتن الصراف تلك التحديات التي تجاوزتها، فهي بالغالب تركز على ذكر لحظات التحدي لأنها المعرفة الاكثر انسجاما مع ذاتها اذ يمكن أحيانا النظر إلى الذاكرة بوصفها معرفة بمعنى ان تذكر الحدث في الماضي هو جزء من معرفة الشخص بما يعني هذا الحدث فعلا "إن الفجوة المفهومية غير موجودة في حالة التذكر الحقيقي فنحن لا نستطيع ان نتخيل ما يمكن ان يملأ اية فجوة بين معرفتي الماضية ومعرفتي الحالية " (٦).

اذ يقسم "الدارسون الرواية حسب موضوعاتها إلى عدد من الأقسام والفروع المتولدة عنها، ومن تلك الأقسام الرواية التعليمية ذات المحكي التوجيهي الخطي حيث يكون مستوى التخييل في الدرجة الصفر كما يقول جون مشيل آدم" (٧) وهنا يمكن الاشارة الى هذا النوع الادبي الذي يعقد اتفاقاً مع القارىء بأن هذه الاحداث قد مرت بالفعل وأن هذا الانسان الذي دون تجربته قد مر بذلك حقيقة، وهذا عبر ميثاق سيري مكتوب على غلاف شجرة البمبر وهو عنوان ثانوي مبين لجنس الكتاب : (يوميات إمراة عراقية) إذن أقرت الكاتبة في العنوان أن الخيال هنا صفر .

المعوقات العامة

ولعلنا نستطيع أن نتخيل الصعوبات التي تواجه فتاة طموحة في البلدان العربية بشكل عام اما العراق فالأمور فيه اكثر تعقيدا من سواه لان هذه المرحلة شهدت حروباً وتعقيدات سياسية زادت الخناق الاجتماعي وعلى المرأة دائما يقع العبء الاكبر .

تصف الكاتبة يوما من الضياع وهي تبحث عن خط السيارات الذي يوصلها الى الجامعة فتركب بالخطأ المواصلات التي تضعها في باب كلية اخرى ثم بعد نهاية جولتها التي تخسر فيها وقت الدوام الرسمي تدرك بوضوح ان الذي منعها من السؤال هو وعي جمعي خاطيء.

"كم من الامور تربينا عليها واكتشفنا فيما بعد أنها محض هراء ..أبرز تلك الامور هي العيب أن تتكلم الفتاة مع شخص لاتعرفه في مكان عام .بعض ماتوارثناه يعلق في ذاكرتنا رغم قناعتنا بسخفه"[٨]

الحرب كانت واحدة من المعوقات التي مر بها جيل فاتن الصراف ولعلها تبدا منذ حادثة قصف منزلهم في البصرة تلك القذيفة التي سقطت على شجرة البمبر ، وهي كما تصفها فاتن كانت الفداء لعائلتها .وفي مشهد تصف فيه الكاتبة تحول مستشفى الى ثكنة عسكرية ، يبين الكثير من اثرالدمار على مدينة البصرة ، الا ان هذا المشهد يبقى منتظما في نسق السردية هنا ، الذي يعلي من صوت الاصرار عبر حبكة الانتصار الاثيرة لدى الكاتبة .

" كيف يُمكن أن أطَّلِع على مباني المستشفى التعليمي الحديثة لأقوم بربطِها بمباني كُليّة الطب التي سأصمّمها، وقد أصبَحَتْ الآن مقرّاً عسكريّاً؟

"طلبتُ من هدى أن ترافقُني لزيارة المبنى، فأنا كمصممة لا يهمُّني لأيّ غرضٍ تُستخدم المستشفى الآن، ما يهمني هو علاقة تصميمها الأساسي بكليّة الطب، وطريقة ربطهما معا " [٩]

وبعد سلسلة من الصعوبات والتحديات تفرض فاتن وجهة نظرها وتحقق ما تريد بالفعل لا يمكن بكل تأكيد تصور حياة كاملة تقوم على انتصار الفكرة والحلم في النهاية ، اذ١ لابد

ان هناك خسارات وهزائم وسوء تقدير، لكن ذلك كان خارج حدود الخطاطة التي رسمتها لأنها تريد من خلالها الانتصاف للإرادة والأمل .

القدرة على التفكير خارج السياقات المعتادة جاءت عبر تجارب واقعية وليست اقتباسات أدبية " حين نفكر بالعراقيل التي قد نتعرض لها اثناء مسيرتنا لن نستطيع المضي قدما ، علينا ان ننظر لاي امر جيد حتى لو كان بسيطا ونبدا من تلك النقطة " [١٠]

معوقات ذاتية

تكتب هذه السيرة ضمن فترة زمنية تمتد من نهاية المدرسة الاعدادية حتى وضع حجر الأساس للعائلة و" بما يعنى أن السيرة هنا تقع في إطار ما يعرف بسرد النمو".[١١]، وهي تقوم على ثيمة

محددة بالثقة والعمل والصبر، فإن الساردة لابد أن تكون قد وصلت الى مديات مقنعة ومبهجة من النجاح الذي ارادته ومن تحقيق جزءا مهما من احلامها، ولانها وصلت الى تلك المرحلة المستقرة نسبيا في حياتها ولانها اصطادت الكثير من لحظات النجاح، فان السرد في سيرتها سيكون مقرونا بالثقة العالية، ثقة من يعرف ان النهاية ستكون سعيدة، عبر طريقة تثير ثقة القارئ وهي اعتماد باب الشهادة والتوثيق عبر ما هو ذاتي وإنساني فاتن البصرية التي اتخذت من(شجرة البمبر)عنوان لسيرتها سجلت عبر سطورها ببساطة وسلاسة وعذوبة شهادة صادقة عما مر به الزمن العراقي بشكل عام والبصري بشكل خاص ، ولعل هذا الارتباط بين الزمان والمكان كان وسيلة الكاتبة في التأكيد على صعوبة المهمة في ظروف معروفة مرّ بها العراق تبدأ بحرب الثمنينيات، فتصف هي مشاهد كثيره منه وتجارب مريرة مثل تجربة من نزح من أهالي البصرة من شبه جزيرة الفاو في أوائل الحرب ليسكنوا المدارس لفترة طالت اكثر مما تصوروا وهم يغادرون بيوتهم ثم تصف تفاصيل تلك الحرب عبر مشهد محوري عندما تعود في العطلة الصيفية الى البصرة بعدما انهت عاما دراسيا شاقا في جامعة بغداد وهي تدرس العمارة ..الهدوء الذي زين ضحى ذلك اليوم الصيفي الجلوس في وسط الدار وانتظار مسلسل (إلى أمي وابي بعد التحية) وهو مسلسل كويتي يعرض على تلفزيون الكويت الذي اعتاد أهل البصرة على متابعته، في هذه اللحظة الصافية تسقط قذيفة حرب على دار الكاتبة فتقتلع شجرة البمبر، تطيح بعلاقتها بالأرض تتخذ السيرة من المشهد لحظة فارقة في سردها الذاتي عبر اختزالها لمواجهة حادة وقاسية بين البراءة والاستقرار ورائحة المنازل الآمنة وبين معنى الحروب الجوفاء والكراهية واختيال الاحلام الملونة، هذه القذيفة التي تترك نقش الألم على يد الكاتبة التي أجابتها شظية من حديد في جسدها تركت أيضا ندبة من قهر لاتشفى عندما تسببت هذه الصدمة بمرض والدتها وهي في ريعان العمر وعذوبته ...اقتلعت شجرة البمبر من الأرض ، وتوفيت الأم ..وغادرت الكاتبة أرضها الأولى إلى حيث ألوان الغربة وأشكالها ...ولازالت .

إذن زمن مرّ بدأ بتفاصيل حرب طويلة ثم استمر بظروف أكثر شراسة على الإنسان المسالم الأعزل الذي لا يحمل سوى آمال طبيبعية بأن يحقق ذاته ويحيا بكرامة، ولم تغفل الكاتبة حكايات صغيرة خاصة عن نقص الموارد الذي واجهته في أيام دراستها في الجامعة ثم تفاصيل عامة مر بها الناس في يوميات الحصار القاتلة كل هذه الاشياء التي مرت لم تجعل من شخصية الساردة سوى امرأة قوية تعرف ماذا تريد وتفهم نفسها لذلك كانت مقنعة لغيرها .

"تمَّ صبُّ أوّل قطعة جاهزة بطول ستّة أمتار، وحين تم رفعُها من القالب بواسطة الكرين انهارت وانقسمت من الوسط إلى قطعتين! شعرتُ بخيبة أملٍ كبيرة، لكنني صمَّمتُ أن أعرف السبب، عدتُ

إلى البيت وبدأت أبحث عن محاضراتي القديمة الخاصة بدرس إنشاء المباني والخاصّة بحسابات التسليح، لقد درسنا تلك المادّة في المرحلة الثالثة، لم أكن أتصوَّر إنّني سأحتاجُ إليها يوماً!

عرفتُ حينها أنّ الخللَ كان في حساب كمية حديد التسليح في الجزء العلوي من الصبّة، كان من السهل أن أسألَ أحد زملائي المهندسين المدنيّين، لكنني لم أكن أريد أن يعرف مديري بأنّه كان مخطئاً في اختيار مهندسة معماريّة لهذا المنصب.

في اليوم التالي، تمَّ صبُّ القطعة ونجحنا في رفعِها من القالب، كما نجَحَتْ كلّ الفحوصات المختبرية الخاصة بتلك القِطَع المسبقة الصبّ. استمرَّ العمل في صبِّ المئات منها، وتم نقلها إلى كلِّ بناية، حتّى حان موعد التركيب على واجهات البنايتين " [١٢]

هذا النوع من الكتابة لا يريد الابهار باللغة او الخيال والصور المجازية ، لكنه يحفل بالسرد الواقعي لغاية توجيهية " ويحلّ محله الإخبار والتعليق والتفسير والنهي والأمر

وفي المحكي التوجيهي يرتدي السارد رداء المُخَلِّصِ (المُخْلِصِ) والمصلح الذي أدرك حقيقة الأشياء بخبرته وتجربته الواسعة في الحياة، ومن خلال خبرته تلك يمرر الكثير من أحكام القيمة يدعم حجة إقناعها وازع إصلاحي أو أبوي دون الاعتماد على النقد والتحليل الذي يُشَرِّحُ الظاهرة ويقف على الأسباب الجوهرية لاستئصالها، وهذا ديدن كل أشكال خطاب الإقناع " [١٣]

"تعلّمتُ منذُ الصِغَر إنّ مَنْ يحمل شهادة التخرّج الجامعية، كالجنديّ الذي يحمل السِّلاح، فالجنديّ لايستطيع أن يُحاربَ أو يدافعَ عن نفسِهِ وهو أعزل، سلاحه هو الشيء الوحيد الذي يحمي حياتَه كما يفتحُ له أبوابَ النَّصْر."

شهادةُ التخرّج سلاحٌ يقي حاملَها من مفاجآتِ الزمنِ والأقدار غيرِ المحسوبة. كنتُ سعيدة وفخورة بسلاحي، وأيُّ سلاح، شهادةُ العمارة التي ستفتح لي آفاقاً واسعة وستكون لي الوسيلة التي تقودني إلى النّجاح والبقاء " [١٤]

طلبتُ من العمّال البقاء في أماكنِهِم وقمت بتشغيل الكرين، بدأتُ برفعِ القطعة الكونكريتية التي كان يبلغ طولها ستّة أمتار وعرضها يتجاوز المتر ونصف المتر، بدأتُ أتحكَّم بذراع الكرين لإيصالها للمكان الصحيح وأنا أتابع تعليمات عمّالي لتوجيهها إلى مكانها.

أيُّ خطأٍ في التّوجيه كان يمكن أن ينتهي بكارثة، أسوأها أن أفقد السيطرة وتعود القطعة باتّجاهي لترتطم بي، أو على أقلِّ تقدير أن تسقط وتنهار، لكنّي لم أسمح للخوف أن يسيطرَ على تفكيري، بعد ربع ساعة من المحاولات، نجحتُ في إيصالها إلى مكانِها وبدأ العمّال بتثبيتها " [١٥] .

السرد التوجيهي/التربوي هو نمط من الكتابة يدمج بين السرد الأدبي والخطاب القيمي أو الإرشادي. وقد عرّفه النقاد التربويون بأنه "تجربة نصية تهدف إلى ترسيخ قيم معرفية وأخلاقية من خلال الحكاية وفي الأدب النسوي بخاصة، يشكل هذا النمط أداة لتأكيد الذات في مواجهة البنى الاجتماعية المهيمنة ويتجلى السرد التوجيهي في شجرة البمبر عبر ما يأتي :

النص يقدّم تجارب الكاتبة في مجال العمارة، فيتحول السرد إلى مصدر تعليمي يرسّخ قيم التنظيم، والتخطيط، وأهمية الخيال البنائي. والقيم الانسانية والاجتماعية عبر استعادة مشاهد الحرب وفقدان الام رسخت الكاتبة قيم الصبر والتماسك الأسري .

ايضا ثمة توجيه نحو فكرة الاصرار على التعلم والتعليم فيتبنى الكتاب ما يشبه خطاب التربية الذاتية عبر بعد تحفيزي مقصود وغرس بطريقة تقترب من الواقع وتمسه لأنها تستثمر تجارب حقيقية ، الامر الذي منحه صدقا واثرا عاطفيا وعقليا مباشراً .

فضلا عن تصوير المرأة بطريقة غير نمطية إذ نجدها داخل حكايات فاتن كذات منتجة ومؤثرة، وهذه قيمة اجتماعية مهمة تعمل على اعادة تربية القارئ اجتماعيا تجاه الانثى، وتحفيز الفتيات على اقتحام الحياة وعبور العوائق التي تصنعها بعض الافكار الثقافية المغلوطة .

" يفصّل الكلام في (مقالة هولدرلين) في مجلد تحت عنوان (التجربة والشعر، ١٩١٠) بأن الروايات التربوية تصور إنساناً صغير السن يبدأ الحياة، ويلاقي الصداقة والحب، ويقع في نزاعات مع الوجود الواقعي، ويجمع تجارب الحياة، ويجد نفسه ومهمته في العالم. وتصوغ الروايات التربوية حسب رأيه الانعزالية لإحدى الثقافات التي تحددت في الحياة الخاصة، وهي تظهر صراع المثل العليا مع عالم قديم. إنها تصور التطور الحتمي لأحد الأفراد في تناقضات تبدو بمظهر مرحلة مرور للنضج والانسجام. وترى سعادة الناس في تفتح الشخصية وانطلاقها " [١٦].

وهذا ما استند إليه كتاب شجرة البمبر وجعلته الكاتبة هدفا ضمنيا لسيرة تعرضها امام الاخرين لأنها تحمل طريقا محاطاً بالتحديات ولكنه ينهي مغامراته دائما بالنجاح والانتصار، وهكذا تنهي فاتن الصراف سيرتها بتلويحة أمل وثقة فتقول : سأكافئ نفسي بعد الانتهاء من مشروعي الأول في استراليا، سأكون حينها قد اتممت الخمسين من عمري، سوف اذهب في رحلتي مع صديقتي الى كوستريكا لتحقيق الحلم الذي بقي في ذاكرتنا لأكثر من خمس وثلاثين عاما، فالأحلام ممكنة وتحقيقها ممكن ولو بعد حين " [١٧]

كتاب شجرة المبمر ليس مجرد مذكرات أو سيرة ذاتية انما هو سرد متمرس بفن حبكة الانتصار يعيد بناء مشهد الانسان اولا ثم المرأة كرمز للصمود اذ تستثمر الالم والخسارة لتبني نجاحات ملموسة.

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة كتاب (شجرة البمبر) لفاتن الصراف وهو سيرة ذاتية توثق جزء من حياة مهندسة عراقية، توثق ذلك الجزء الخاص بالدراسة والعمل ولذلك تبدو صالحة بوصف اختاره البحث لها : (الرواية التعليمية او رواية النمو) فهي تركز على فترة عمرية تشكل موقف الانسان من الحياة وتأسس له، وتهدف من وراء الكتابة الى ايجاد مسوغ نبيل لبث روح المقاومة والتحدي، وهي بذلك تنتمي الى الكتابة المقاومة ثقافيا، لاعتمادها على الفردية ولأنها تريد ماهو ابعد من النص المكتوب، تريد اثرا يساعد الانسان ويمنحه خيار القوة والحرية .

تتحقق ذلك للكاتبة عبر اعتمادها حبكة الانتصار في الكتاب كله ، وفي اختيارها لحوادث صغيرة تثبت في النهاية انه مهما كانت الصعاب في الطريق فلابد من اجتيازه بنجاح .،

الهوامش

(١) كتابة الانا بين المرجعي والتخييلي من السيرة الذاتية الى التخييل الذاتي /اعداد وتنسيق سعيد جبار/ نصوص مترجمة / داركنوز المعرفة للنشر والتوزيع/ عمان/٢٠٢٢/ص ٤٥.

(٢) معجم السرديات /محمد القاضي واخرون/دار محمد علي للنشر /تونس/٢٠١٠/ص١٤١.

(٣) شجرة البمبر / فاتن الصراف / دار الحكمة للطباعة والنشر / لندن/ ٢٠١٧/ ص١٧.

(٤) شجرةالبمبر ١٢.

(٥) شجرة البمبر ١٥.

(٦) الذاكرة في الفلسفة والادب/ ميري ورنوك/ترجمة فلاح رحيم / دار الكتاب الجديد المتحدة/بيروت /٢٠١٧. ص ٧٢

(٧) الرواية التربوية ،محمد معتصم ، مجلة الكلمة ،العدد ٥٠، ٢٠١١.

(٨) شجرة البمبر ١١.

(٩) شجرة البمبر ٥٠

(١٠) شجرة البمبر١٦٣.

(١١) ينظر مقال بعنوان : ادب التغيير والرواية التربوية من موقع الكتروني : https://middle-east-online.com/:

(١٢) شجرة البمبر ٧٤.

(١٣) مجلة الكلمة / الرواية التربوية / محمد معتصم /العدد ٣٠/ ٢٠١١.

(١٤) شجرة البمبر ٥٦

(١٥) شجرة البمبر ٧٦.

(١٦) الرواية التربوية* ـ بيترا غالمايستر . ت.د.محمد فؤاد نعناع

أنفاس ٠٩ آب/غشت ٢٠٠٧

(١٧) شجرة البمبر ١٦٣.

المصادر

١. أدب التغيير والرواية التربوية، مقال منشور في موقع Middle East Online، دون تاريخ نشر.

٢. الرواية التربوية، بيترا غالمايستر، ترجمة: د. محمد فؤاد نعناع، مجلة أنفاس، ٠٩ آب/غشت ٢٠٠٧.

٣. الرواية التربوية، محمد معتصم، مجلة الكلمة، العدد ٣٠، ٢٠١١.

٤. الرواية التربوية، محمد معتصم، مجلة الكلمة، العدد ٥٠، ٢٠١١.

٥. الذاكرة في الفلسفة والأدب، ميري ورنوك، ترجمة: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠١٧.

٦. شجرة البمبر، فاتن الصراف، دار الحكمة للطباعة والنشر، لندن، ٢٠١٧.

٧. كتابة الأنا بين المرجعي والتخييلي: من السيرة الذاتية إلى التخييل الذاتي، إعداد وتنسيق: سعيد جبار، نصوص مترجمة، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٢٢.

٨. معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، دار محمد علي للنشر، تونس، ٢٠١٠.

1-Adab al-Taghyīr wa al-Riwāyah al-Tarbawiyyah" [Literature of Change and the Educational Novel]. (n.d.). Middle East Online. https://middle-east-online.com/

2-Galmeister, P. (2007, August 9). The Educational Novel (M. F. Na'na'a, Trans.). Anfas Magazine.

3-Al-Qadi, M., et al. (2010). Dictionary of Narratology. Tunis: Mohamed Ali Publishing House.

4-Al-Sarraf, F. (2017). Shajarat al-Bambar (The Bambar Tree). London: Dar Al-Hikma for Printing and Publishing.

5-Jabbar, S. (Ed.). (2022). Writing the Self between the Referential and the Fictional: From Autobiography to Autofiction. Amman: Dar Kunuz Al-Ma'rifa for Publishing and Distribution.

6-Mu'tasim, M. (2011). The Educational Novel. Al-Kalima Magazine, (30.(

7-Mu'tasim, M. (2011). The Educational Novel. Al-Kalima Magazine, (50.(

8-Warnock, M. (2017). Memory in Philosophy and Literature (F. Rahim, Trans.). Beirut: United New Book House.